# الفصل الخامس

## الاعتماد المخالف للواقع: هل تُحْدِثُ الأسبَابُ اختلافًا؟

لنفرض أنَّ القطار قد تأخَّر وصوله عن الوقت المحدَّد لوجود أيل على سكَّة الحديد، هل يحقُّ لنا الاعتقاد أنَّ الأيل هو سبب التأخير؟ ربَّما يتعيَّن علينا القول: إنَّ الأمر لا علاقة له بالانتظام؛ لأنَّنا نعلم أنّها حالة واحدة، وليس لدينا أيُّ فكرة عما تفعله بقيَّة الأيائل في الأماكن والأوقات الأخرى. إنَّ اعتقادنا محصورٌ في هذا الأيل بالذَّات الذي سبَّب تأخير هذا القطار عن الوصول في الوقت المُحدَّد.

لدينا هنا طرح معقولٌ وواقعيٌّ، مفاده أنَّ الأيل لو لم يكن واقفًا على سكة الحديد لكان القطار قد وصل في موعده المحدَّد، ألا تبدو هذه الفكرة معقولة؟

يمكننا القول: إنَّ الأسباب تصنع فرقًا فيما يحدث، وربَّما كانت أحداث التاريخ مختلفة لو لم تحدث أسباب معيَّنة؛ على سبيل المثال: لقد قُتل الرئيس الأمريكيُّ أبراهام لينكولن برصاصة قاتل، وبمعنًى آخر فالعيار الناريُّ هو الذي

تسبَّب بموته، والمغزى من هذا المثال هو أنَّه لولا إطلاق النار لما قُتل لينكولن في أثناء العرض المسرحيِّ.

ربَّما كانت أمور كثيرة أخرى ستحدث بصورة مُغايرة، لكنَّها لن تغيِّر من حقيقة موته كأنْ نقول: لو حضر مسرحيَّة أخرى لمات أيضًا بالعيار الناريِّ، ولا يوجد مبرِّر للاعتقاد بأنّه كان سيبقى على قيد الحياة لو حدث ما حدث في ليلة أخرى من الأسبوع.

بلا شكٍّ، فإنَّ العيار الناريَّ هو الأمر الوحيد الذي صنع الفرق من حيث حياته أو موته.

إنَّ الفائدة المُرتجاة من هذا المثال هي أنَّه علينا أنْ نبحثَ عن صانع الفرق. ومن طرق التفكير في ذلك أنْ نتخيَّل ماذا كان بالإمكان أنْ يحدث لو لم يكن هذا الشيء، أوذاك موجودًا، عندها سيتحوَّل افتراض إن كان الأيل قد صنع الفرق إلى سؤال مفاده: هل كان القطار سيصل في الوقت المُحدَّد لو لم يكن الأيل واقفًا على سكة الحديد؟

باستطاعتنا التَّصوُّر أنَّ القطار كان سيصل في الموعد المُحدَّد لو لم يعترض الأيل طريقه.

إنَّه بلا شكٍّ مبدأ أخَّاذ، وهو يُعدُّ اختبارًا للسَّببيَّة بكثرة في القانون والطب؛ مثلًا: إذا قاضى أحدهم شركةً بسبب أضرار معينة تسبَّبت بها الشركة، فعليه أنْ يُثبت أنَّ موضوع الدعوى يُشكل فرقًا، وإذا عانى أحدهم مرضًا ما، فلا يملك المرء إلا أنْ يُثْبِت أنَّ هذا الشّخص لم يكن ليعاني لولا إجهادات معيَّنة قام بها، أو نتيجة إهماله، وبالمثل إذا حُوكم شخص لتسبُّبه بوقوع حادث، فلا بدَّ من إثبات أنَّ الحادث لم يكن ليقع لولا أفعال المُدَّعى عليه، أو إغفاله.

وبالمُصطلحات الفلسفيَّة، يُعرف هذا باختبار الاعتماد المُخالف للواقع في السَّببيَّة، وتوجد نظريَّة فلسفيَّة تقول: إنَّ السَّببيَّة نفسها تكمن في اعتماد مُخالف للواقع بين الأحداث.

## لو كانت الأمور مختلفة

ما نعنيه بمصطلح (**مُخالف للواقع**) بكلِّ بساطة أنّه مُنافٍ للوقائع، فالحقيقة هي وجود أيل على السِّكة، ومن المنافي للواقع القول: إنَّ الأيل غير موجود هناك. وكثيرًا ما تجذبنا وتستهوينا الافتراضات المنافية للواقع، وتدفعنا للتفكير فيمَ كان سيحدث في تلك الحالات الافتراضيَّة: ماذا سيحصل لو انتصرت ألمانيا في الحرب العالميَّة الثانية؟ هل كنا نتكلم الألمانيّة الآنَ؟ وماذا لو نزل الحلفاء في لندن اليوم؟ مع افتراضنا أنّهم لن يفعلوا ذلك، فما الفرق الذي سيُحدثونه؟

نحتاج إلى إضافة عناصر أخرى لنحصل على نظريَّة للسَّببيَّة تكون اعتمادًا مخالفًا للواقع، نحن لا نتحدَّث عن افتراض مُخالف للواقع فحسب، إنَّما نعتمد عليه أيضًا؛ فإذا قلنا: لو غابت الشمس عن هذا المكان سيصبح باردًا جدًّا، وهذا إقرارٌ بأنَّ أحد الشيْئَيْن يعتمد على الآخر، وقد تشعر بسعادة بالغة لاعتقادك بصحة افتراضك الشَّرطيِّ مع أنّه مبدوء بِ(لو) الشَّرطيَّة التي تنفي صِحَّته؛ فحتى يصبح المكان شديد البرودة، فذلك يعتمد -بصورة مخالفة للواقع- على غياب الشمس عن هذا المكان.

ليس هذا كلَّ شيء، فقد توجد اعتمادات مخالفة للواقع غير سببيَّة؛ فإذا كان هذا الشَّهر هو يونيو- وهو ليس كذلك- ، فسيكون اللاحق هو شهر يوليو، ومعنى ذلك أنْ يكون شهر يوليو هو الشهر المُخالف للواقع فذلك يعتمد على أنْ يكون الشهر الذي نحن فيه شهر يونيو، لكن هذا لم يحدث لأنَّ هذا الشهر هو يونيو.

وعليه، يتعيَّن على أولئك الذين يدافعون عن هذا الطَّرْح بوصفه نظريَّة للسَّببيَّة أنْ يميِّزوا بين هذه الاعتمادات المخالفة للواقع ، السَّببيَّة منها من غير السَّببيَّة.

توجد فكرة ترى أنّ الاعتماد المخالف للواقع يجب أنْ يكون بين حوادث منفصلة. تحتاج السَّببيَّة إلى أنْ تكوِّن علاقة طبيعيَّة فيما يخصُّ الأحداث الدائرة في العالم، بدلًا ممَّا يسمِّيه هيوم بعلاقات الأفكار (relations of ideas)، فتكون بعض الاعتمادات المخالفة للواقع منطقيَّة، أو رياضيَّة، أو تحليليَّة، وسترتبط بقيَّتها بالأحداث والوقائع في العالم اعتمادًا على بعضها.

## العلاقات والرَّوابط

كان من الطبيعي منذ نشر هيوم كتابه أن يُنظر إلى السَّببيَّة بوصفها علاقة بين أحداث معيَّنة واضحة. إن ماهية هذه الأشياء والعلاقة التي تربط بين شيْئَيْن أو أكثر هي قضيَّة للنظريَّة السَّببيَّة.

يميل مؤيِّدو هيوم إلى الجَزْم بأنَّها أحداث، فيما يميل مؤيِّدو أرسطو إلى التفكير بها بوصفها موادَّ، وأجسامًا مستقلة مثلًا.

قد يشير أحد مؤيِّدي أرسطو إلى تسبُّب الأيل-بوصفه كيانًا بيولوجيًّا مستقلاً- في تأخُّر القطار، وبالمقابل سيقول أحد مؤيِّدي هيوم: إنَّ وجود الأيل على السِّكة كان السَّبب في تأخُّر القطار. إنَّ فهم المرء للرَّوابط السَّببيَّة يكشف عن افتراضاته الوجوديَّة الكامنة، فإذا تحدَّث فيلسوف ما عن سبب ذوبان كتلة سُكَّر عند وضعها في الماء، فإنَّ هذا يعكس فكرة هيوميَّة أساسيَّة متبلورة لديه.

عادةً ما يُنْظَر إلى وجهة نظر الاعتماد المخالف للواقع للسَّببيَّة بوصفها نظرة هيوميَّة أخرى لها؛ ففي حقيقة الأمر، لقد صاغ هيوم نظريَّتيْن مختلفتيْن للسَّببيَّة بقوله: إنَّ الأشياء ملائمة للطرفيْن كِليْهما، وفكرة السَّببيَّة تجعلهما يبدوان

كعلاقة محتملة بين حدثيْن مميَّزيْن في نظريَّتيْن هيوميَّتيْن، ويكمن الاختلاف بينهما فيما إذا كانت العلاقة من النَّوع المترابط المُستمرِّ، أوالاعتماد المخالف للواقع. وقد عُرف عن ديفيد لويس – الذي قدَّم لنا أفكار هيوم المختلفة – أنَّه أحد مؤيِّدي وجهة نظر الاعتماد المخالف للواقع، لكنَّ السَّببيَّة بوصفها علاقة محتملة بين الأحداث أو بوصفها مجرد علاقة، أمرٌ قد يطعن به معارضو هيوم.

## الوقائع ونقائضها

ما المُعطيات والمعلومات التي بحوزتنا فيما يتعلق بحادثة تأخُّر القطار بسبب الأيل؟ يقول الهيوميُّون (مؤيِّدو هيوم): «إنَّ كلَّ ما لدينا هو حدث متبوع بحدث آخر؛ يوجد أيل على السِّكة، والقطار الذي تأخَّر، ولا وجود لرابط قويٍّ بين هذيْن الحدثيْن؛ فالأيل لا يؤخِّر وصول القطار، أو يحتِّم عليه ذلك، وهو أمرٌ قد يبدو أضعف من نظريَّة انتظام».

وعليه، يوجد من يفسِّر المشهد هنا على النحو الآتي: إنَّه ذلك الجزء من النظريَّة الذي يؤمن بفكرة الاعتماد المخالف للواقع؛ إذ توجد حالات كثيرة يتبع فيها حدثٌ حدثًا آخر، وما يجعل بعض الحالات سببيَّةً أنَّه إذا لم يحصل الحدث الأوَّل، فإنَّ الثاني ما كان ليحدث أيضًا.

وهكذا، لا يكون الاختلاف بين وجود السَّببيَّة من عدمها في الوقائع والأحداث التي تحصل في الواقع فحسب، بل في حقائق ما كانت لتحدث لو كانت الأمور مختلفة.

تبدو النظريَّة مذهلة نوعًا ما وفقًا لهذا المنظور؛ فالسَّببيَّة لا تتألَّف ممَّا هو موجود، بل من شيء غير موجود؛ شيء مناقض للواقع، ومخالفٌ له. وقد يعتقد المرء أنَّ وجود الأيل قد أثَّر فعلًا في شيء آخر باعتراضه مسار القطار، لكن لا

يمكننا سوى القول: إنَّ الأيل سبَّب التأخير. واعتمادًا على هذا الرأي، فإنَّ القطار كان سيصل في موعده المحدَّد لو لم يكن الأيل واقفًا على سكَّة الحديد.

إنَّ هذا ذو قيمةٍ يُعتدُّ بها في فكرة الاعتماد المخالف للواقع، وما زال باستطاعتنا إضفاء بعض المصداقيَّة على ما تأتي به الحقائق المخالفة للواقع، ولا عيب في اعتماد النظريَّة عليها.

تُدعى إحدى وجهات النظر الخاصَّة بالاعتماد المخالف للواقع بالخياليَّة (fictionalism)، وتكمن الفكرة في أنَّ تفكير المرء بافتراض مخالف للواقع أشبه ما يكون بالتخيُّل؛ فإذا اعتقدنا أنَّ الأيل كان على السِّكة في الواقع، فإنَّ انتفاء وجوده في ذلك الوقت، والمكان سيكون محض خيال.

وفي الوقت الذي غمرتنا مشاعر السَّعادة والإعجاب بعنصر الخيال في أثناء مطالعة قصَّة أوليفر تويست الذي ترعرع في أحد دور الرعاية، ثم بيع، ليلتقي رجلًا يُدعى فاجن، يمكننا أيضًا فهم قصَّة غياب أيل ما عن سِكَّة الحديد في مكان ما.

ولكن، هل هذا كافٍ لدعم مبدأ السَّببيَّة؟ لا شكَّ أنَّ أوليفر تويست محضُ خيال، ولا وجود له خارج عقل المؤلف وقُرَّائه؛ فهو شخصيَّة روائيَّة ليس بمقدورها التفاعل سببيًّا مع أناس حقيقيِّين خارج إطار الرواية، فهل يمكن أنْ تصل الوقائع الحقيقيَّة للسَّببيَّة في عالمنا إلى مثل هذا الخيال؟ لنفرض افتراضًا جدليًّا أنَّ الأيل غير موجود على السِّكَّة، كيف لمثل هذا التخيُّل والتَّصوُّر أنْ يُحدِّد مسائل مُهمَّة في العالم الحقيقيِّ حول حقيقة: مَنْ يُسبِّب مَنْ؟

إنَّ ما يدعو للقلق هو أنَّ الافتراض الخياليَّ للاعتماد المخالف للواقع يجعله خاضعًا لتأثير ميتافيزيقيٍّ غير كافٍ لإصلاح وقائع سببيَّة حقيقيَّة، عندئذٍ ربَّما

علينا إيجاد افتراض جوهريٍّ يُضفي على الحقائق المخالفة للواقع بعض الوجود الحقيقيِّ.

قدَّم ديفيد لويس مثل هذا الافتراض، وما هو مُخالف للواقع في عالمنا سيكون واقعيًّا في عالم آخر؛ ففي عالمنا يوجد أيل على السِّكَّة، والقطار قد تأخَّر، بينما في عالم آخر شبيه بعالمنا لا وجود لأيل على السِّكة. يشبه العالم الآخر عالمنا في كلِّ شيء باستثناء وجود الأيل في طريق القطار، وفي مثل هذا العالم يسير القطار في وقته المحدَّد وفق ما يقوله لويس.

ولكي نضع الأمور في نصابها، وتسير الأحداث في مسارها الصَّحيح مفترضين أنَّ غياب الأيل عن السِّكَّة سيمكِّن القطار من الوصول في موعده، يلزمنا عالم مُشابه لعالمنا في كلِّ شيء عدا الأيل، وفي ذلك العالم لم يتأخَّر القطار. لدى العالم الآخر أكبر عدد ممكن من الوقائع، والحقائق الموجودة في عالمنا بما ينسجم وغياب الأيل، ولا يمكننا افتراض أيَّ حقيقة إضافيَّة غير صحيحة في عالمنا؛ مثل: وجود دُبٍّ على السِّكَّة أيضًا. وبافتراض ذلك، تمضي النظريَّة دون الأيل، ودون وجود أيِّ شيء آخر في طريق القطار.

جعل لويس الحقائق المُخالفة للواقع أساسيَّة؛ فهي جميعها حقائق واقعيَّة بالنسبة إلى عوالمها الموجودة فيها، وهذا يُخفِّف من وطأة القلق تجاه التفسيرات الخياليَّة للاعتمادات المخالفة للواقع، إلا أنَّها تثير قلقًا من نوع آخر؛ فإذا أردنا لنسخة لويس من النظريَّة أنْ يكتب لها النجاح، فيجب أنْ توجد تعدُّديَّة للعوالم الأخرى الملموسة - واحد لكلِّ حالة ممكنة - وكلٌّ منها عالم حقيقيٌّ بقدر عالمنا، ويصرُّ لويس على أنْ تكون هذه العوالم حقيقيَّةً بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى، وقد تكشَّف لنا توًّا سبب هذا الإصرار؛ ذلك لأنَّ هذه العوالم لها وظيفة أساسيَّة تقوم بها. وينظر الكثير إلى هذا الواقع المبنيِّ على عوالم حقيقيَّة متعدِّدة بوصفه مغالاة وجوديَّة.

عالم لكلِّ احتمال

لا يمكننا القول على وجه اليقين إنَّ مثل هذه العوالم لا وجود لها، والسَّبب في ذلك هو انفصال تلك العوالم مكانيًّا، وزمانيًّا عن بعضها؛ إذْ لا وجود لأيِّ تفاعل بينها؛ لذلك لا يمكننا التّحقُّق تجريبيًّا من وجودها، ومع هذا يبدو الأمر مكلفًا جدًّا، وغير بدهيٍّ لدرجة لا تجعلنا نقبله.

## اختبار الاعتماد المخالف للواقع

قبل أنْ يمضي الفلاسفة بعيدًا في مخيِّلتهم، سوف نختبر فيما إذا كان نقيض الواقع صحيحًا أم لا، فبدلًا من الإمعان في عالم آخر ممكن الوجود يصحُّ فيه افتراض نقيض الواقع، ماذا لو جعلنا الأمر صحيحًا في عالمنا الخاصِّ؛ لنرى ما سيحدث؟

إذا أردنا فَهْم مَنْ يُسبِّب مَنْ، فيجب أنْ تُنفَّذ بعض الاختبارات العمليَّة البسيطة كما في المثال الآتي: افترض أنَّك ترى بيتًا من أوراق اللعب، ولنفرض أنَّ الورقة السُّفليَّة ترفع جُزْئيًّا بعض البطاقات أعلاها، قد يخطرلك للوهلة الأولى أنّه إذا لم تكن تلك الورقة موجودة في مكانها الحيويِّ، فسيؤدِّي ذلك إلى انهيار

بقيَّة الأوراق في أعلى البناء، وفي ذلك إشارة إلى السَّببيَّة. يمكنك الاعتقاد بهذا الاعتماد المخالف للواقع، وبالتأكيد تستطيع إزالة البطاقة الموجودة في الأسفل لتتحقَّق إنْ كانت بقيَّة الأوراق ستسقط فعلًا. قد لا يفضِّل المرء القيام بهذا؛ لأنَّ اختبار هذه الحالة السَّببيَّة سيدمِّرها أيضًا، لكن توجد حالة مشابهة لاختبار نقائض الوقائع بنتائج أكثر فاعليَّة، وإيجابيَّة على ما يبدو.

لنفرض أنَّ عقارًا دوائيًّا جديدًا قد اخترع، ونريد التحقُّق من تأثيره السَّببيِّ الإيجابيِّ في مرض معيَّن، فكيف يتسنَّى لنا معرفة ذلك؟ استقرَّت مهنة الطبِّ على تجربة قياسيَّة تبدو شبيهة باختبار اعتماد مخالف للواقع لكن من دون النظريَّات الوجوديَّة لعوالم لويس الأخرى، وهي التجربة العشوائيَّة المنضبطة (RCT -Randomized Controlled Trial)*.

يُختار المرضى الذين سيخضعون للتجربة، ويُقسَّمون عشوائيًّا إلى مجموعتيْن، ويُشترَط أنْ تكون المجموعتان متشابهتيْن إلى حدٍّ بعيد ليكون عدد المرضى كبيرًا بصورة كافية، ثمَّ يُعطى عقار التجربة لأوَّل مجموعة - ولتكن **مجموعة العلاج**- بينما ستحصل المجموعة الأخرى على عقار وهميٍّ غير معروف.

يمكن استخلاص نتيجة واحدة من هذه التجربة، وهي أنَّ معدَّل الشِّفاء بين مجموعة العلاج أفضل من معدَّل الشفاء في مجموعة العقار الوهميِّ. وبناءً على ذلك، سنقدِّم طرحًا سببيًّا، وهو أنَّ العقار قد عالج المرض، أو تحكَّم فيه، وسيجعلنا هذا الطرح نشعر بالرِّضى؛ لأنَّنا نعتقد إنْ لم تتناول مجموعة العقار الوهميِّ العقارَ، فإنَّ عددًا أقلَّ من المرضى سوف يتعافى.

---

* هي نوع من أنماط البحث العلمي التجريبيِّ، خاصَّةً في مجال الطب؛ فالناس الذين يخضعون للدراسة يُخصَّصون عشوائيًّا بواحدة أو أكثر من وسائل العلاج المختلفة تحت الدراسة. (المترجمة).

تسمح لنا العشوائيَّة التي قُسِّمَت وفقها المجموعتان بتقديم هذا الطرح، وقد ذكرنا فيما يخصُّ نظرية لويس، أنَّه ينبغي أنْ يكون العالم المُناقض للواقع شبيهًا بالعالم الواقعيِّ في الجوانب جميعها قدر الإمكان بما يتواءَم مع الافتراض المُخالف للواقع، وستؤكد العشوائيَّة المُتَّبعة في تقسيم عيِّنة كبيرة كافية في مجموعتيْن تشابه المجموعتيْن بما يحقِّق غرضنا؛ ولهذا إذا حصلت المجموعة الأولى على معدَّل شفاء أعلى من الأخرى، فمردُّ ذلك يعود إلى أنّه لا توجد أنواع مختلفة من الناس في مجموعة دون الأخرى، كأنْ تضمَّ المجموعة الأولى أشخاصًا أصِحَّاء أكثر مثلًا. إنَّ كلَّ ما سبق يُظهِر ويؤكد جديَّة تعامل الحقل الطبيِّ مع اختبار الاعتماد المخالف للواقع في السَّببيَّة.

## طريقة عكسية؟

إنَّ استعمال نوع من الاعتماد المخالف للواقع بوصفه اختبارًا للسَّببيَّة شيء، والاعتقاد بأنَّ السَّببيَّة تتكوَّن بمثل هذا الاعتماد شيء آخر، حيث ترى النظريَّة الفلسفيَّة التي درسنا من خلالها الحالة الأخيرة أنَّ السَّببيَّة ليست أكثر من مجرد اعتماد مخالف للواقع بين الأحداث.

يمكن أنْ يجادل أحدنا بقوله: إنَّ هذا يقدِّم ترتيب التفسير بطريقة غير صحيحة، وفي اعتقادنا فإنَّ الترابط السَّببيَّ للأحداث هو سبب اعتماد بعضها على بعضها الآخر بما يناقض الواقع، وإذا عدنا إلى موضوع الاختبارات العشوائيَّة المدروسة، فإنّنا نقرُّ بوجود سبب يجعل معدَّل شفاء مجموعة العلاج أفضل من معدَّل مجموعة العقار الوهميِّ، وهذا ليس حقيقة هيوميَّة أساسيَّة؛ فالدَّواء ناجع فعلًا، وله أثر سببيٌّ. ألم يتوقَّف من تعافى في مجموعة العلاج عن تناول العقار الدوائيِّ حتى لو لم تكن مجموعة العقار الوهميِّ موجودة؟

لنفرض أنَّ تلك المجموعة أهملت، ولم تُعطَ عقارها الوهميَّ بسبب خطأ إداريٍّ، فبالتأكيد لن يكون لذلك أيُّ صلة بمجموعة العلاج سواء تعافى أفرادها من المرض أم لا، وكيف يكون لشفاء مجموعة العلاج علاقة بما حصل لمجموعة العقار الوهميِّ الذين لا يختلطون بأيِّ صورة من الصُّور مع مجموعة العلاج؟

ثمة انتقاد لنظريَّة لويس مفاده أنَّ معتقداتنا عن الروابط السَّببيَّة الحقيقيَّة في هذا العالم هي التي تبلور أفكارنا، ومعتقداتنا عمَّا يمكن أنْ يحصل في عوالم أخرى حيث تختلف الأمور قليلًا؛ فنحن غير قادرين على معرفة ما يحصل في تلك العوالم، لذلك ليس لدينا معلومات عنها. وعليه، فإنّنا نعتقد في حالة غياب الأيل أن القطار سيصل في موعده؛ وذلك لاعتقادنا في هذا العالم بأنَّ الأيل سبَّب التأخير.

وبناءً على ما تقدَّم، فإنّنا نعتقد أنَّ وجهة نظر الاعتماد المخالف للواقع قد فسَّرت الأمور بطريقة غير صحيحة؛ فالاعتماد المخالف للواقع ليس سببًا لترابط الأشياء من ناحية سببيَّة؛ فترابطها سببيًّا مردُّه وجود اعتماد مخالف للواقع لبعض الأحداث، وقد يكون الاعتماد المخالف للواقع مجرَّد منتج للسَّببيَّة أو مجرَّد دالٍّ عليها.

## كثرة المُحدِّدات

لكن، هل يصلح الاعتماد المخالف للواقع لأنْ يكون دلالة؟ يشير بعض النقاد إلى أنَّ بعض حالات السَّببيَّة قد تخلو من اعتماد مخالف للواقع، وأنَّ الاعتماد المخالف للواقع قد يكون بلا سببيَّة أيضًا.

ماذا لو كان الأيل واقفًا على السكة بجانب إشارة حمراء معطلَّة؟ سيتأخَّر القطار في هذه الحالة حتى لو لم يوجد أيلٌ على السِّكة، وإنْ لم يُوقِف الأيل

القطار، فسيوقفه شيء آخر، وهنا يبدو أنَّ الأيل قد سبَّب التأخير، لكنَّ القطار كان سيتأخر دون أنْ تكون للأيل علاقة في ذلك؛ فالأيل سببٌ لكنَّه على ما يبدو لا يشكل فرقًا في الأحداث، ولا يصنعها.

إنَّ سبب حدوث ما سبق هو كثرة محدِّدات الأثر لدينا، فيمكن لكلٍّ من الأيل والإشارة المعطَّلة أنْ يؤخِّرا وصول القطار، ولا يوجد اعتماد مخالف للواقع عندما تكون لدينا محدِّدات كثيرة؛ فلو لم يكن الأيل موجودًا هناك، فإنَّ القطار سيتأخَّر؛ لأنَّ الإشارة معطَّلة، وإذا لم تكن الإشارة معطَّلة، فسيصل القطار متأخِّرًا أيضًا بسبب الأيل. وبناءً عليه، فإنَّ مُحدِّدا الأثر في الموقفيْن السّابقيْن ليسا مُسبِّبيْن للتأخير إذا تمثلت السَّببيَّة في اعتماد مخالف للواقع.

وقد ناضل منظِّرو الاعتماد المخالف للواقع لنفي حدوث كثرة محدِّدات الآثار؛ ربما لأنَّ سببًا واحدًا يأتي قبل الآخر، ويُلغيه، وكأنَّ السَّبب الأول مسؤولٌ عن السَّببيَّة بينما لا يتمتَّع الثاني بأيِّ تأثير. لكن، لماذا علينا أنْ نستبعد احتمالاً قائمًا مثل كثرة المُحدِّدات المتزامنة؟ فوجود سببيْن لأثر واحد يحدثان في الوقت نفسه، وبصورة مستقلة عن بعضهما مشهدٌ ممكن أنْ يحدث، وإذا كان الدَّافع الوحيد لاستبعاد مثل هذا المشهد هو الحفاظ على نظريَّة الاعتماد المخالف للواقع، فإنَّ الأمر سيبدو وكأنَّه خطوة مقصودة.

## الشَّرط اللازم

إنَّ كثرة المُحدِّدات هي سببيَّة دون اعتماد مخالف للواقع، وفي المقابل تبدو بعض الحالات غير سببيَّة، لكن ومع ذلك لدينا اعتماد مخالف للواقع بين الأحداث المميَّزة، ونسمِّي هذا النوع من الحالات بالشَّرط اللازم، أو الشَّرط الضروريِّ، ونعني به: أنَّ الحدث اللاحق يحصل بوقوع الحدث الأوَّل دون أنْ يكون سببًا في حدوثه، وهو أمر لا يشبه الرَّابط السَّببيَّ.

لنوضِّح فكرة الشرط اللازم بضرب هذا المثال البسيط: يزيد طلال من سرعة خطواته بعد ظهر أحد الأيَّام، وقد فعل ذلك بعد أنْ نهض من السَّرير ذلك الصباح. عندما يزيد طلال من سرعة خطواته فهو يعتمد بصورة مخالفة للواقع على نهوضه من السَّرير، لكن هل سبَّبَ نهوضه من السَّرير ذلك الصباح زيادة سرعته بعد الظهر؟ لا يبدو الأمر على هذه الصورة؛ فعندما استيقظ طلال لم تكن لديه أيُّ نيَّة لزيادة سرعة خطواته لاحقًا، لكن ذلك كان شرطًا ضروريًّا لحدوث زيادة السرعة؛ فهو لن يتمكن من المسير بعد الظهيرة لو بقي في السَّرير.

وبالمثل، تعتمد سرعة طلال الزَّائدة بصورة مخالفة للواقع على الانفجار الكبير، مع أنَّ الانفجار الكبير لم يُسبِّبها، بل كان مجرَّد شرط ضروريٍّ لها. وفي الواقع، كلُّ شيء تفعله في حياتك سيعتمد بصورة مخالفة للواقع على ولادتك، لكن هل سبَّبَتْ ولادتك هذه الأشياء التي تقوم بها؟ فهل كانت سببًا في اختيارك اللحم بدلًا من الخضار في المطعم؟ أو كانت سببًا في إعطاء الأولويَّة في صداقاتك؟ أو الإقلاع عن التدخين؟ أوالانتقال إلى لندن على سبيل المثال؟

من ناحية أخرى، يعتمد كون هيوم فيلسوفًا بصورة مخالفة للواقع على أنّ له جدَّيْن عظيمَيْن، علمًا أنَّ جدَّيْه العظيمَيْن لم يكن لهما أيُّ تأثير في تعليمه، أو في قراره بأنْ يُصبح فيلسوفًا، وإذا فكَّرنا على هذا النحو، فيبدو البَوْنُ بين الشرط الضروريِّ، والسَّبب الحقيقيِّ شاسعًا جدًّا، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الاعتماد المخالف للواقع، والسَّببيَّة لا يمكن أنْ يكونا شيئًا واحدًا.